هكذا، نعم، ببساطة...

الدكتور محمد نور الدين

- ١ -

في ذلك الأحد من «أيام حزيران الثانية» كان مطار تلك المدينة الأوروبية يعجّ بكل ألوان التفاؤل والأمل بالانتصار، كأننا في الأيام الأولى من حرب حزيران الأولى. لكنني حين ضغطت على يدي صديقي العائد مع المتطوعين للقتال ضد الغزاة، كنتُ كمن يدخل لحظة من التجلّي الصوفي والصفاء الذهني حين قلتُ له: «نحن العرب، يا صديقي، لا نملك سوى الحماسة. إنها ضرورية لكنها غير كافية» وما ان أقلعت الطائرة بالشباب حتى كانت دمعة من الدم تنهمر قرفاً من.. الواقع العربي.

- ٢ -

كلما خضنا حرباً نقول: «انهزمنا، لكن العدو لم يحقق هدفه الرئيسي» أي اننا انتصرنا جزئياً أو بكلام آخر: ما زال بعض الواقع المهترىء «سليماً» و«سالماً» من التدمير والخراب. هكذا منذ أكثر من خمسين سنة. تارة «حافظنا على الأنظمة الوطنية» وتارة «طبعة منقحة ومزيدة من كتاب الوحدات والإتحادات والتضامنات والقمم» وطوراً «الجيش الآن أضعاف ما كان عليه». فنمتلىء ثقة، وإذ تنطلق الرصاصة الأولى نتفجر حماسة. وما إن نصحو - ويا للهول - فكأن شيئاً لم يكن ولكأننا لم ننهزم. وتتكرر دورة التاريخ والتأريخ وننتهي إلى كتاب مصوّر «يوثّق» للحرب.

- ٣ -

نحن نملك الحماسة وينقصنا كل ما تبقى.

نحن لا نملك إلا الحماسة وينقصنا كل ما تبقي: الحرية.

الحرية رديف الانسان. الحرية ممارسة انسانية. والإنسان هو حريته.

الحرية منطلقها وأداتها وغايتها الانسان: الانسان بوظائفه وحاجاته وممارساته المعيشية والسياسية - الإيديولوجية التي تكفل له تحقيق ذاته كإنسان.

الحرية، من هنا، بالمفهوم المادي، هي حرية الجماهير كلها في:

الحصول على الغذاء والمسكن والملبس، أولاً، وفي تفرعاتها الأخرى كالطبابة والتعليم ووسائل الترفيه والنقاهة - وهي الوظيفة المعاشية.

وثانياً في ممارسة الانسان لوظيفته السياسية - الإيديولوجية: في التعبير عن فكره قولاً وكتابة «كلاماً عادياً» أو «ابداعاً فنياً»، وفي الممارسة السلطوية ضمن تركيبة تنظيمية محددة ولغاية محددة وواحدة: الإنسان.

هكذا، نعم، ببساطة..

ولأنها «تبسيطية» إلى هذا الحدّ فهي جوهرية - الحقيقة بذاتها.

خارج الوظيفة المعاشية لا مجال للسياسي - الإيديولوجي كممارسة عامة - شعبية. نحن هنا لا نضع الديالكتيك جانباً. لكن الواقع المعيشي هو المنطلق والغاية، وخارجه تصبح ممارسة الأدلجة، كنظرية مضادة أم كنظام قائم، تصبح في أحسن حالاتها فقّاعةً نخال دويّها انتصاراً، فإذا هو انتصار للحماسة فقط. ويصير تاريخنا المعاصر تاريخاً من الحماسة المنتصرة.

الحماسة المنتصرة بالضبط رديف «الانتصار الجزئي» المتكرر عام ١٩٦٧ و١٩٧٣ و١٩٧٨ و١٩٨٢. وبعد كل «انتصار جزئي» نجد الجرح في اتساع والدرب أكثر انسداداً.

أين هي الأزمة؟ في انعدام الحرية.

ما هو الحل؟ في تأمين الحرية للمواطن.

قد تبدأ الخطوة الأولى من موقع السياسي - الإيديولوجي، الذي قد يكون نخبوياً، لكن في اتجاه ولغاية الموقع المعيشي لكل الجماهير، لتنكص بعد ذلك في اتجاه السياسي - الإيديولوجي الذي يصبح، بالضرورة، شعبياً.

هكذا، نعم، ببساطة..

حتى السلاح المتطور والحديث، بانتفاء الشرط المعيشي هو «حماسة» أخرى تضاف. التأييد الدولي كذلك... تراكم حماسات!

من أين نبدأ؟
بالمدرسة المجانية للجميع.
بالمستشفى المجاني للجميع.
بالمسكن اللائق للجميع.
بالعمل الشريف للجميع.
ببيئة صحية للجميع.
بضمانات حياتية للجميع.

ثم، بالممارسة المسؤولة لحرية التعبير والكتابة والتدرج السلطوي.

عندها، إذ يضغط كل واحد منا على الزناد ويحكّم القلب - لا الأصابع - قبضته على القنبلة اليدوية، دون خوف أو قلق على مصير ومستقبل أولاد أو زوجة أو بيت أو كلمة تكتب.. عندها نخرج من حماستنا اليتيمة ونملك حريتنا - نملك كل شيء وننتصر.

هكذا، نعم، ببساطة!

- ٤ -

المثقف العربي؟.

مشروع التحام بقضايا الجماهير لم يتحقق بعد!
والمسألة هي: كيف نصل؟

المثقف - أولاً - هو إنسان «تاريخي» لا مكان له خارج السياق الزمني للواقع بمختلف ظواهره وتناقضاته. والمثقف العربي، إن كان يستهدف نفسه مشروعاً جماهيرياً، أي من أجل الجماهير الساحقة والمسحوقة من أمتنا، فهو «محكوم» بواقع هذه الجماهير: الأمية، الفقر، المرض، الجهل، التخلف، التناحرات القبلية والعقدية. وهو لذلك أمام خيارين لا ثالث لهما: إما السير خارج «الخط الجماهيري» «حفاظاً» على كمية المعرفة التي تلقاها أساساً في الخارج، وبالتالي وَضْع نفسه، شاء أم أبى، في موقع المتقاطع تلقائياً مع «الآخر» المضاد، حكْماً، للجماهير. وإما التحدث إلى هذه الجماهير، كجزء منها، عن طريق الممارسة اليومية، بأدواته الخاصة، حتى يؤدي دوره «التاريخي» الفاعل.

كمثقفين نستهدف أنفسنا مشروعاً شعبياً «محكومون» بالخيار الثاني الذي يعني «حريتنا» الأكيدة والتي تجد حيّزها الكامل نحو التنفيذ في ظل الأنظمة الشعبية الحقيقية. أما في حالة الأنظمة القمعية - وهو ما يعنينا هنا مباشرة - فإن خانة الـ «يكْ» التي يحشر فيها المثقف العربي تتطلب منه «الصمود» أمام الاغراءات المستمرة، وما أكثرها، من جهة والالتحام حتى الموت بقضايا الجماهير من جهة أخرى.

السؤال: كيف نصل، نحن مثقفي خانة الـ «يك» إلى هذه الجماهير؟.

هكذا، نعم، ببساطة:

بالمعايشة الدائمة لواقع، وهموم الناس: مع العامل في مصنعه والفلاح في حقله، والأطفال في أزقتهم والفقراء في أكواخ التنك والباطون، وما سمي زجاج السيارات عند تقاطع الطرق.. عندها يصبح دقّ مسمار في نعل حذاء مع عامل في مصنع مشهداً مسرحياً، والنهوضُ عند الفجر مع مزارعي التبغ قصيدة واللعب مع الأولاد في الزواريب فصلاً من رواية.

حين «يمارس» الشاعر قصيدته والروائي روايته والفنان لوحته والفيلسوف نظريته ورجل الدين عظته، لا يصبح العمل الفني أو الكلام الموجّه أو النظرية الفلسفية هلوسة في فراغ من فراغ وإلى فراغ. ولا تعود الدجاجة تتلبس بريش الطاووس ولا القصيدة الطالعة من نبض وعرق ودم الفلاح في جنوب لبنان أو صعيد مصر أو ريف العراق وسوريا أو أزقة المغرب «تزهو» بالقبعة الانكليزية أو ربطة العنق الفرنسية، بل بدشداشة و«حطة وعقال» مجبولة بمرارة التبغ وتنضح برائحة الأرض.

في هذه «الممارسة» الفعلية للمنتوج الثقافي تتحقق حرية المثقف والمثقفين.

مثقفي الجماهير.
مثقفي الممارسة.
مثقفي الوضوح.
مثقفي الأصالة.
مثقفي الحقول والمصانع والأكواخ والأزقة..

وفي هذه الحرية - انتفاء ونفي «للآخرين»:

مثقفي المقاهي.
مثقفي أحدث النظريات الغربية.

مثقفي الغموض.
مثقفي التعالي والتقوقع.
مثقفي التغريب..

تتحدد المعادلة - المواجهة:

المثقف الشعبي من جهة والمثقف «الآخر» كائناً من كان: البورجوازي الديني، الإقليمي، المثالي، النفعي.. الخ من جهة ثانية.

وتتضح الممارسة: فهل من عذر بعد أمام المثقف العربي الحقيقي - المثقف العربي الشعبي لأن يمارس دوره بعد وأثناء وخارج الهزائم - الحماسات المنتصرة؟

هكذا نعرف كيف نصل:

بالصمود - التعربة.
بالنظرية - الفعل.

وينقلب السؤال إلى:

كيف يصبح المثقف العربي مثقفاً شعبياً؟

- ٥ -

عن كتاب مكسيم غوركي «حكايات من إيطاليا» يورد حنا مينة في كتابه «ناظم حكمت - السجن، المرأة، الحياة» أن ملك الملوك تيمورلنك سأل مرة الشاعر كرماني:

- يا كرماني، بكم تشتريني لو عرضت في سوق البيع.

فأجابه قائلاً: بخمسة وعشرين ديناراً.

قال تيمورلنك في كثير من الدهش:

- ولكن حزامي وحده يساوي هذه القيمة!.

فأجابه كرماني: انما كنتُ أفكر بحزامك وحده، لأنك أنت نفسك لا تساوي فلساً واحداً.

- ٦ -

هكذا، نعم، وبكل بساطة، نعثر على الطريق، «نهتدي» ونكون واضحين كأقدام أولاد الأزقة الحفاة ونعرف كيف نحيا مع الشعب ونموت كواحد «كلنا من أجل واحدنا، واحدنا من أجل كلنا. فأن تكون سجيناً فليس بمسألة. القضية هي ألا تستسلم»... عندها فقط نخجل - كما ناظم حكمت - من «الرفاه» الذي شعر به شاعر الإنسانية التركي، بعد أخذه... حَمَّاماً!

د. محمد نور الدين
بيروت